الخدعة الرهيبة

لعل من شواهد العصر على ذلك الحادث، ما أكده وذكره تيري ميسون المفكر الفرنسي في كتابه (الخدعة الرهيبة) الذي صدر في فبراير 2002، الذي استطاع أن يفتح ثغرة من الشك في الاتهامات الأمريكية المعلنة ضد بن لادن، حين جمع كل البيانات الأمريكية وضم إليها كل ما أذاعته الأجهزة الأمريكية من أشرطة فيديو لبن لادن علاوة على خطب وحوارات وتصريحات الإدارة الأمريكية، ليكشف للقارئ أننا أمام فيلم جرى التحضير له مسبقاً.. مما يسقط كل الروايات الرسمية التي قَبِلَها العالم من أمريكا.

وبقراءة ذلك الكتاب تستطيع أن تخلص بأن الكاتب تيري ميسون يذهب إلى الرأي نفسه الذي قاله لاروش، وهو أحد أكثر المفكرين السياسيين إثارة للجدل في الحياة السياسية في الولايات المتحدة نظراً لأن أفكاره السياسية والاقتصادية والثقافية مخالفة لتوجهات الطبقات والمؤسسات الحاكمة المهيمنة هناك؛ فقد قال لاروش: إن أمريكا ضربت أميركا في 11 سبتمبر. ومن بين الكتب التي تعد مثيرة للجدل بين الأوساط الأمريكية والعالمية وفي الوقت نفسه تمثل مفاجأة مثيرة للتساؤل هو كتاب (الصقور: الدور الخفي للموساد والـ سي آي ايه).

هذا الكتاب ليس لمؤلف عربي أو حتى مسلم، بل هو لصحفي ومؤلف في الوقت نفسه من دوله غربية ولا يدين بدين الإسلام، إنه الكاتب الصحفي الألمانية المعروف (ولفجانج أجيرت)، وللعلم فقد اختفى الكتاب من السوق الألمانية بمجرد صدوره بما يشير لأصابع الاتهام لإحدى السفارات الأجنبية في ألمانيا، أنها وراء ذلك الاختفاء.

وقد ذكر أجيرت أن أجنحة داخل المخابرات الأمريكية وراء أحداث 11 سبتمبر، بالتعاون مع الموساد الإسرائيلي، وعلى الرغم من كل هذه الأصوات الصادرة من الغرب ذاته التي ترفض اتهام المسلمين بالضلوع في أحداث 11 سبتمبر، فإن الإعلام الغربي الذي يسيطر عليه اليهود، استمر في حملته الإعلامية الشرسة ضد الوجود الإسلامي في الغرب وفي الولايات المتحدة تحديداً.

وظهر العديد من الكتب، تصب في الاتجاه التحريضي نفسه.. لعل أخطرها كتاب (الجهاد) لمؤلفه ستيفن إمرسون، وكتاب (الإرهابيون يعيشون بيننا)، وكتاب (الإسلام والإرهاب)، وكتاب المثقف اليهودي توماس فريدمان الذي يحمل عنوان (المواقف والاتجاهات: تصفح العالم بعد 11 سبتمبر).. وهو يقدم تصوراً لخريطة العالم بعد أحداث 11 سبتمبر، ويقسمها إلى حلفاء وأعداء، وقد وصف المسلمين بأنهم (هؤلاء الأعداء الذين يهددون الحضارة الغربية) في زعمه.

وقد أسفرت هذه الحملات المكثفة عن إثارة مشاعر الكراهية ضد المسلمين وتعرض 58٪ منهم لاعتداءات انتقامية، وصلت إلى حد تدمير المساجد وتشويهها، وقد تعرض المركز الإسلامي بكربنديل إلى تشويه

وذلك بكتابات ورسم بعض العبارات على جدران المسجد من الخارج تسيء إلى الإسلام والمسلمين، وقتل بعض الأشخاص وتم التحرش بالنساء المحجبات. وقد أشار إلى ذلك بيان أو تقرير مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية بمناسبة مرور عام على أحداث 11 سبتمبر، الذي أبرز صوراً مختلفة للمساندة الإيجابية التي تلقاها المسلمون من أبناء الديانات الأخرى منذ أحداث سبتمبر، كما أبرزت استطلاعات الرأي العام الأمريكي الإيجابية نحو الإسلام والمسلمين. وفي الوقت نفسه يوثق التقرير تلك الضغوط والانتهاكات التي تعرض لها المسلمون في أمريكا خلال الأسابيع الثمانية الأولى التالية للهجمات، وإلى بعض سياسات الحكومة الأمريكية التي أضرت بحقوق وحريات المسلمين وتنظيماتهم.

التقرير أشار إلى نشاط الإعلاميين والسياسيين المتطرفين الذين دأبوا على تشويه صورة الإسلام والمسلمين وتأليب الرأي العام الأمريكي عليهم، وذلك على الرغم من إدانة مسلمي أمريكا لأحداث 11 سبتمبر، وتعبيرهم عن هذه الإدانة في مناسبات مختلفة. ويقول الدكتور محمد نمر ـ مدير الأبحاث والدراسات بمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، الذي أعد التقرير: إن «11 سبتمبر مثلت نقطة تحول للمجتمع الأمريكي المسلم، ولكن لم يتضح بعد ما إذا كانت أصوات التسامح الديني سوف تنتصر على أصوات المتطرفين المنادية بعدم التسامح مع المسلمين وبالتمييز ضدهم».

كما أشار التقرير إلى أن المسلمين الأمريكيين نشطوا بعد تفجيرات سبتمبر في التواصل والحوار مع المجتمع الأمريكي لتوضيح حقيقة الإسلام والمسلمين، وذلك من خلال فتح المساجد والمراكز الإسلامية أمام الزوار للالتقاء بهم في مناسبات عديدة.. وذلك لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

وعلى غير المتوقع، فإن أحداث 11 سبتمبر كان لها أكبر الأثر في المجتمع الأمريكي بفئاته وطبقاته كافة، وأدت إلى العديد من التساؤلات حول الإسلام ومبادئه ونظرته للغير، وعلاقة المسلمين بغيرهم. ولهذا التغيير مؤشرات ذكرتها مجلة النيوزويك الصادرة في 2002/1/7، منها زيادة مبيعات الكتاب الإسلامي وترجمات معاني القرآن الكريم، وتزايد أعداد الراغبين في التسجيل بالحلقات الدراسية حول الإسلام في الفصل الدراسي المقبل، وازداد الطلب على الأئمة، ليتحدثوا عن الإسلام في الكنائس والمعابد اليهودية.. واعتنقت أعداد كبيرة من الأمريكيين الإسلام يقدرهم بعضهم بخمسين ألف مسلم ومسلمة.

ونشرت صحيفة «نيويورك تايمز» قبل عامين مقالاً ذكرت فيه أن بعض الخبراء الأمريكيين يقدرون عدد الأمريكيين الذين يعتنقون الإسلام سنوياً بخمسة وعشرين ألف شخص، وأن عدد الذين يدخلون دين الله يومياً تضاعف أربع مرات بعد أحداث 11 سبتمبر، وذكر رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكي أن أكثر من 24 ألف أمريكي قد اعتنقوا الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو أعلى مستوى تحقق في الولايات المتحدة منذ أن دخلها الإسلام.

ولو خرجنا من الولايات المتحدة الأمريكية إلى قلب أوربا، لوجدنا المآذن فيها بدأت تناطح أبراج الكنائس، وصوتُ الأذان يدوي خمس مرات في اليوم عبر تلك البلاد، والحمد لله أن الإسلام يكسب كل يوم أرضاً جديدة وأتباعاً جدداً. فقد بلغ عدد المساجد في أمريكا ما يقرب من ألفي مسجد، ومئة وعشرين مسجدًا في إيطاليا. ونظراً لإقبال الغرب على الإسلام، فقد حذر أسقف إيطالي بارز من (أسلمة أوروبا). بل وصل الخوف ببابا الفاتيكان إلى صراخه بذعر في وثيقة التنصير الكنسي لكل المنصرين على وجه الأرض قائلاً: «هيا تحركوا بسرعة لوقف الزحف الإسلامي الهائل في أنحاء أوربا».

توقعات لزبنغيو بريجنسكي

نحن نؤمن بالقضاء خيره وشره، ونعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، لكننا نؤمن في الوقت ذاته بالتفكر والتدبر والتبصر والمقارنة والتحليل والاستنباط واستخلاص قوانين التطور العامة على ضوء التوجهات الرئيسة لتياراته الكبرى. وفي التاريخ أساس صالح لعلم حقيقي هو علم المستقبليات، الذي يختلف تماماً عن التنجيم وقراءة الطالع، وبهذا الفهم ندرك الأسس التي يستند إليها خبراء أو علماء في رسم ملامح مشاهد مستقبلية، يتوقعون عبرها تطورات معينة، أو تحولات في مسار صراع ما، أو تغيرات في توجهات اقتصادية أو سياسية أو عسكرية أو اجتماعية.

ولو تمعنّا في كتب أولئك الكتّاب أمثال لزبنغيو بريجنسكي، وهنري كيسنجر، وسيمون بيرسون وصمويل هنتنغتون (صاحب كتاب تصادم الحضارات)، وعمر فروخ.. لوجدنا أن العالم بين أيدينا، فهناك فكر الشرق، وفكر الغرب. نعم نحن لم نأخذ من الغرب تفاصيل عريضة من فكره وعلمه، ولكن ما أريد أن نعرفه هو كيف يفكر رجال الغرب حالياً، وكيف ينظرون للعالم وإلينا بشكل خاص. فلا بد من خطوة أولى للحوار مع الآخر، وهي أن تفهم مفردات تفكيره في الحياة حتى لو اختلفت معه... افهم تفكيره أولاً، ثم ادخل في حوار أو جدال وأنت على بينة. فأنا لا أحب الذين يمتلكون نظرة جامدة ويلتصقون بها، ولا يغيرون خطابهم الفكري وطريقة الحوار مع الآخر. هذه العقليات المتجمدة هي كارثة على السلام في العالم، وتقارب وجهات النظر. هذه العقليات موجودة في خطاب الغرب نحو الشرق، وفي خطاب الشرق نحو الغرب.. لا بد إذاً من إيجاد لغة حوار أكثر عقلانية... لغة حوار أقل عدوانية تجاه الآخر.... لغة حوار ناضجة تحترم البشرية وحضارتها ومستقبلها، قال الله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: 159). وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: 64).

هذه هي لغة الحوار التي نريد أن ترسخ الخير والسلام لكل سكان الأرض. فالأرض صارت قرية صغيرة، نتواصل مع بعضنا دون حواجز... أتلقى رسائل بريدي الإلكتروني من اليابان والصين والهند وباكستان، مثلما أتلقاه من كندا وأميركا وبريطانيا وفرنسا وأميركا الجنوبية. كلنا نملك رغبة في الحوار... وكلنا بشر... وأهدافنا في الحياة متشابهة. الكل يريد حياة آمنة حرة كريمة... وكفى. وفي الواقع فإن كتب السياسة بصورة عامة مملة. ولكن القارئ مضطر للصبر حتى يفهم في النهاية. وقد أدهشتني نهاية كتاب بريجنسكي (رقعة الشطرنج الكبرى). فعلى مدى الـ (233) صفحة التي يستغرقها الكتاب، يتصدى بريجنسكي، كواحدٍ من أهم الاستراتيجيين الأميركيين، لعرض موقع الولايات المتحدة كقوة عالمية وحيدة حاكمة. وبريجنسكي هو مستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق خلال ولاية الرئيس جيمي كارتر (1976 - 1980)، وحالياً هو عضو مجلس أمناء مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن (CSIS)... ومعلوم أن بريجنسكي يعد في الوسط الأكاديمي الأميركي والعالمي وفي عواصم القرار الكبرى أحد أعلى المراجع والخبرات في ميدان العلاقات الدولية والفكر الاستراتيجي والجيوسياسي. ففي حديث أدلى به أخيراً خلال إحدى الندوات في مجلس العلاقات الخارجية الأميركية، عدّ بريجنسكي مصداقية الولايات المتحدة في العالم قد تراجعت في السنتين الأخريين إلى مستويات لا سابق لها. ويعزو هذا التراجع إلى سلسلة من الإخفاقات في رؤية الإدارة الأمريكية الحالية

لقضايا العالم، وفي نقص المعالجات المتوازنة لأزمات معقدة وخطيرة مثل أزمة الشرق الأوسط. ورداً على سؤال حول قوله خلال محاضرة سابقة ألقاها في واشنطن: «إن مكانة الولايات المتحدة الدولية بلغت أكثر مستوياتها انخفاضاً»، قال بريجنسكي: «إنه من الواضح تماماً أن الولايات المتحدة باتت إثر نجاحاتها العسكرية في كل من أفغانستان والعراق، هي القوة الوحيدة التي تمتلك قدرات عسكرية عالمية، وبالتالي فليس هناك دولة أخرى تمتلك قدرات بهذا الحجم. لكن المفارقة هي أنه في الوقت نفسه ـ واستناداً إلى مؤشرات كثيرة، وإلى استطلاعات الرأي عبر العالم، وإلى ردود فعل الحكومات الأجنبية، وإلى تقارير الصحافيين الأميركيين المنتشرين في العالم ـ فإنه يمكن القول إن أمريكا تفتقر إلى المصداقية الدولية التي تتماشى مع مكانتها وإمكاناتها.. مما يجعل هذه المكانة ـ بالمعنى السياسي ـ تقف في نقطة منخفضة لم يسبق أن بلغتها في أي وقت مضى. فقد كان الجزم المطلق بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل هو سبب أساسي لتدمير الثقة في الولايات المتحدة وفي كلمتها في العالم. وفي يقيني إن هذا الأمر يشكل تطوراً خطيراً يؤثر سلباً في دور الولايات المتحدة في العالم».. انتهى كلام بريجنسكي.

وقد استعرض بريجنسكي في كتابه، علاقات أميركا مع دول العالم.. أوربا وآسيا وغيرها، ثم بدأ يضع اقتراحات في نهاية الكتاب، وكيف يمكن لأميركا الاحتفاظ بدور سيدة العالم أو قائدة العالم. وأنا أتفهم هذا الطموح البشري في الخلود. ربما منذ أيام

جلجامش قبل التاريخ. لكن ثمة مثلاً شائعاً يقول: (لو دامت لغيرك لما آلت إليك)... فالبشر معظمهم حين يتسلم أحدهم منصباً ما، يظل يفكر بكل الوسائل كيف سيظل ملتصقاً بهذا المكان ولا يعطيه لغيره. وقد ذكر الكاتب أن هناك إحصائية عن الشعب الأمريكي تقول إن غالبيته لا تحب فكرة أن تحكم بلادهم العالم أو تتدخل في شؤون الدول، لأنها دولة ديمقراطية ولا يمكن لدولة ديمقراطية أن تكون إمبريالية استعمارية. وقد ذكر أنه لا بد من حدث عظيم يجمع الأمة الأمريكية على قرار التدخل في دول العالم والتحكم برقعة الشطرنج الكبرى. ولكن كيف يحدث هذا التحول؟

يقول المؤلف: إذا تعرضت أميركا لحادث كارثي مأساوي مثل بيرل هاربر وهجوم اليابان في الحرب العالمية الثانية، وكانت خسائرها البشرية كبيرة، فإن غالبية الأمة الأمريكية ستوافق على تدخل أميركا في العالم وشن حرب جديدة.

وقد أذهلتني هذه التوصيات.. فالكتاب تم نشره في عام 1997 بينما حدثت أحداث 11 سبتمبر عام 2001، وهاقد حدث تماماً ما أوصى به الكاتب! فهو مستشار الأمن القومي سابقاً. ولكن ماذا نقول؟ هل أصبحنا لا نحسن قراءة التاريخ أو لا نحسن القراءة أصلاً؟ وهل الذي قام بأحداث 11 سبتمبر، كان يحب أميركا ويريد لها أن تكون سيدة العالم؟ أم هل من قام بها هم أعداء أميركا حقاً؟ وإذا كانوا أعداء لها.. فيا لهم من أعداء.. إنهم يريدون المجد والسيادة لأميركا على العالم، وقد أعطوها كامل الحجة التي كانت تريدها للتحرك.

أما إذا كان من قاموا بتنفيذ تلك الأحداث من داخل أميركا نفسها، فذاك أمر آخر. وفي الواقع لا أعلم الإجابة الآن، ولكنها أسئلة صعبة ومحيرة.. ومن يملك الجواب الحقيقي هم قلة. ولهذا تجدني لا أحب السياسة ولا المشاركة فيها، لأنها لعبة غامضة غير بريئة.. لعبة يختلط فيها الخير والشر.. لعبة تحكمها نظرية «الغاية تبرر الوسيلة» بما يعني أن أستعمل كل وسيلة ممكنة لتحقيق الهدف.. حتى لو كانت بلا أخلاق، بلا رحمة، بلا عدالة. وما يحدث للعالم اليوم هو ما يدعوني للقول بأنه لا بد من تغيير هذه اللغة الغبية.. القبيحة في الوقت نفسه.. فقد دمرت العالم ولا بد من إيجاد لغة حوار جميلة مهذبة تتسم بالأخلاق.. تزخر بالمبادئ والرحمة والعدالة.

❀ ❀ ❀

واقع كاربنديل

إننا في عالم مليء بما لا يليق به.. في عالم يضمحل، وتضمحل فيه الأخلاق.. عالم يندثر ويذوب كشمعة الديمقراطية الأمريكية. فكل ما يجري من حولنا هذه الأيام لم يعد أمراً عادياً، حتى الدخول إلى أية مؤسسة حكومية أصبح أمراً يثير الريبة والقلق. فالعربي لم يعد هو نفسه بعد أحداث 11 سبتمبر.. لقد تغير العالم كثيراً وعلت موجات العنصرية والعداء للعرب والمسلمين باسم الحرب على الإرهاب والإرهابيين. ولم تكن تلك الإجراءات العدوانية واردة لولا أحداث 11